مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد 07 العدد 02 أكتوبر 2021 ص- ص:119.-137.

التوزيع السكاني والأنشطة الاقتصادية للصابئة المندائيين في العراق خلال العهد العثماني(1517–1917م).

Population distribution and economic activities of the Sabean-Mandaeans in Iraq during the Ottoman era (1517-1917 AD)

د.عبد الحميد الارقط، (*)
قسم العلوم الانسانية ،جامعة حمه لخضر الوادي، الجزائر،largot-abdelhamid@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2021/05/ 05 **تاريخ القبول:** 2021/06/ 20 **تاريخ النشر:** 2021/10/ 09

الملخص

تعتبر الأقليات الدينية في العراق من المكونات الأساسية للمجتمع العراقي الى جانب الأغلبية المسلمة بمختلف مذاهبها، لذلك لفيت اهتماما كبيرا من الباحثين خصوصا في القرنين الأخيرين (19و20م)، ومن بين هذه الأقليات أقلية الصابئة المندائية التي تعد الأقل حجما مقارنة بباقي الأقليات اذ لم يتجاوز عدد أتباعها حاجز ال 20.000 نسمة رغم أنها من أقدم الديانات في بلاد العراق، لها خصائصها ومعتقداتها، وكتبها وتنظيمها الاجتماعي، وتأتي هذه الدراسة التي نسلط الضوء من خلالها على عدة جوانب من حياتهم بداية بالتعريف بهذه الديانة، والأوضاع العامة لأتباعها خلال العهد العثماني، وكذا توزيعهم السكاني في العراق وحركتهم وهجراتهم، كما نتطرف لأهم أنشطتهم الاقتصادية خلال فترة الدراسة .

الكلمات الدالة: الصابئة–المندائية–الأقليات–الأديان–العراق .

Abstrac:

Religious minorities in Iraq are considered one of the basic components of Iraqi society, along with the Muslim majority in their various sects. Therefore, great attention has been paid to the Baghein, especially in the last two centuries (19 and 20 CE), and among these minorities is the Sabean-Mandaean minority, which is the least in size compared to the rest of the minorities. The number of its followers is 20,000, although it is one of the oldest religions in the country of Iraq. It has its own characteristics, beliefs, books and social organization. This study, through which we highlight several aspects of their lives, begins with introducing this religion, and the general conditions of its followers during the Ottoman era, as well as their distribution. The population movement in Iraq, their movement and their migrations, as well as their most important economic activities during the study period.

Keywords: Sabeans - Mandaeans - minorities - religions - Iraq

1.المقدمة:

تعد بلاد العراق من البلدان العربية والاسلامية التي تتميز بتنوع كبير في بنية مجتمعها عرقيا ودينيا، حيث يتكون المجتمع العراقي من عدة عرقيات مختلفة كالعرب والأكراد والتركمان وغيرهم، كما تعايشت في العراق عدة أديان مختلفة منذ القدم، كالاسلام والنصرانية واليهودية، اضافة الى الأيزيدية والصابئة المندائية، لذلك فقد حظي المجتمع العراقي باهتمام الباحثين الذين حاولوا تسليط الضوء عن مكوناته سواء الأكثرية المسلمة المنقسمة مذهبيا أو الأقليات التي استطاعت أن تحافظ على وجودها لحقب تاريخية متعاقبة، وكانت الدراسات تتناول الجوانب المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه المكونات، لكن الأقليات صغيرة الحجم ديمغرافيا لم تلق نفس الحظ ونفس الاهتمام من الدراسة بسبب قلة عددها وقلة تأثيرها في المجتمع، ومن هذه الأقليات الدينية التي لم تلقى اهتماما كبيرا نجد أقلية الصابئة المندائية التي تميز أتباعها بعدة خصائص عن باقي مكونات المجتمع، سواء من حيث انتشارهم وتوزيعهم في هذه البلاد أو من حيث نوعية أتشطتهم الاقتصادية، وهو ما سنتطرق اليه في هذه الدراسة بهدف التعريف بهذه الأقلية وأسباب قلة حجمها الديمغرافي، وأسباب تواجدهم في مناطق معينة دون غيرها، بالاضافة الى أهم أنشطتهم الاقتصادية والعوامل المتحكمة فيها.

2. التعريف بديانة الصابئة المندائية:

يطلق اسم الصابئة المندائية على أتباع النبي يحي عليه السلام، وهو آخر أنبياءهم، كما يرجعون أصل ديانتهم الى النبي آدم عليه السلام، وهي أقدم ديانة توحيدية حسب كثير من الباحثين، أهم كتاب عندهم الكنزربا،الذي يرجعونه لآدم عليه السلام، لهم طقوسهم وعباداتهم الخاصة بهم، معبدهم يسمى المندي، وأتباع هذه الديانة جماعات قليلة متفرقة في البطائح بالعراق والأهواز في ايران، وبعضهم في البلدان الأوروبية وأمريكا وبلدان أخرى، ويرى قسم من الباحثين أنهم نوعان صابئة حران وصابئة البطائح[1] ، في حين يرى قسم آخر أنهم من أصل دين واحد.

وعن الأنبياء الذين يؤمنون بهم هم أنبياء الله آدم ثم شيتل بن آدم ونوح وسام بن نوح وإدريس عليهم السلام، وآخر أنبيائهم يحي بن زكريا عليه السلام، لهم أكثر من كتاب مقدس أهمها: (گنزاربا المقدس) أي الكنز العظيم والذي يعتقد أنه صحف آدم عليه السلام، و كتاب (دراشة إيهيا) أي تعاليم يحي عليه السلام، وهو المقصود في قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾(مريم، الآية 12)، يليهما كتب (سدرة إدنشماثا و أسر ملواشة، انياني (العبادات)، تقسير بغرة، كتاب الماريشابا دواوين قماهي (زرستا).

أما اللغة التي يتكلم بها الصابئة اللغة العربية والآرامية والسيريانية القديمة، لكن كتبهم المقدسة مكتوبة باللغة العراقية الأصلية (المِندائية)، كما يفتتح الصابئة كلامهم بـ"ابْشوميهون أد هيي ربي" وتعني بالعربية بسم الله الحي العظيم ، كما تصنف ديانة الصابئة المندائية ديانة مسالمة وغير تبشيرية، لا يمكن دخول معتنق جديد لها، شعارها اللون الأبيض وتحترم جميع رسل الله وتدعو لوحدانية الله، واعتبرهم مشايخ المسلمين من أهل الذمة لأن جميع شروط وأحكام أهل الذمة تنطبق عليهم، ومن طقوسهم المقدسة السكن بالقرب من المياه الجارية حيث لايجوز عندهم التطهر الا بها، كما أن شعيرة التعميد عندهم ركن أساسي لا غنة عنه بالنسبة للمندائي، لا يتزوجون الا قيما بينهم وهذا ما يفسر تناقص أعدادهم عبر الزمن .

تجدر الاشارة الى أن اللة تعالى عز وجل ذكرهم في الفرآن الكريم في ثلاث مواضع من كتابه العزيز وهي على النحو التالي: أولا قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾[2](البقرة، الآية 62)ثم ثانيا قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾[3](المائظة، الآية 69) . ثالثا وأخيرا قوله تبارك وتعالى في سورة الحج ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى**

والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء قدير﴾[4](الحج، الآية 17) .

3. التوزيع السكاني للصابئة واحصائياتهم في العهد العثماني:

1.3 الأوضاع العامة للصابئة المندائيين في العهد العثماني:

اتسمت فترة الحكم الاسلامي عموما باستقرار نسبي مقارنة بالاضطرابات والحروب التي كانت سائدة من قبل في الأوضاع السياسية العامة ، لذلك يمكن اعتبارها من أفضل الفترات بالنسبة لطائفة الصابئة المندائية، وقد تحدثت بعض المصادر أن عددهم وصل الى 40000 نسمة في العهد العباسي[5]، مع العلم أن تلك الفترة كان صابئة حران يتواجدون في عاصمة الخلافة العباسية بغداد كما أشرنا الى ذلك . وقد كانوا في أيام الخلفاء العباسيين منتشرين في كثير من بلدان الشرق التي تقع على الأنهار، وكذلك منطقة حران، أما في فترة الحكم العثماني فقد أصبحوا محصورين في أماكن معينة من العراق وفي بلاد عربستان (خوزستان)، ومعظم منازلهم بل كلها واقعة على شواطئ الأنهار لأن طقوسهم وعاداتهم الدينية لا تتم إلا بالإرتماس في الماء الجاري كما أسلفنا، وقد حدثت بهم عبر تاريخهم عدة حوادث أفنت الكثير منهم وقضت على عدد من كتبهم المقدسة[6]

وتخبرنا المصادر التاريخية أن الدولة العثمانية قد تعاملت مع الأقليات كاليهود والنصارى بشكل فيه الكثير من التسامح والحرية على اعتبار أنهم من أهل الكتاب، ولم يختلف تعامل العثمانيين مع الصابئة كثيرا عن الأقليتين السابقتين مع الفارق المتمثل في حجم هذه الأقلية من حيث قلة عدد النفوس، ومن حيث الاعتراف الرسمي بها كطائفة . لكن ذلك لم يؤثر اطلاقا على حال الصابئة المندائيين، اذ لم تتعرض لهم الحكومة العثمانية قط، ولم يلقوا أي شكل من أشكال الاضطهاد باعتراف أبناء هذه الأقلية، رغم بعض الاستثناءات البسيطة التي سنأتي على ذكرها لاحقا، والتي لا يمكن اعتبارها ممنهجة بل كانت عفوية وتصرفات فردية من قبل بعض الأشخاص وان كانوا يتقلدون مناصب حكومية أحيانا

أما التنظيم الاجتماعي لهذه الأقلية الدينية خلال فترة الحكم العثماني فقد كان كان تنظيما هرميا دينيا، وهذا بحكم تعاليم الديانة الصابئية التي تنص على احترام رجال الدين حسب رتبتهم، كما أن طبيعة الصابئة المتمثلة في الميل الى العزلة والانطواء للمحافظة على خصوصيتها وهويتها مما جعل الطائفة تظل منغلقة على نفسها. كما أن هذه الديانة تحرم الزواج من غير أبناء الطائفة فلا يحل للصابئي أن يتزوج بغير الصابئية، والعكس أيضا، فأثر ذلك تأثيرا واضحا على تزايد عدد نفوسها، لكن ذلك بالمقابل ساعدها في المحافظة على تنظيمها الاجتماعي من جهة، والمحافظة على قيمها ومبادئها من جهة أخرى[7] .

هذا، ويعد شرط الانتماء إلى دين الصابئة وما يتطلبه من مراسم تقبّله، هو السبب الذي جعلهم محصورين في العدد آخذين في التناقص وقد لا يمر قرن عليهم إلا وهم منقرضون من الوجود، أضف إلى ذلك ما ذكرناه عن حالتهم الاجتماعية وعادات الزواج عندهم التي تمنعهم من التوسع والانتشار، حتى أن أغلب الدراسات والاحصائيات تشير الى أنهم لم يتجاوزوا ال 10000 نسمة منذ القرن الثامن عشر .

2.3 توزيعهم وانتشارهم في العراق خلال العهد العثماني:

عموما تركز أتباع هذه الديانة في فترة الدراسة في منطقتين رئيسيتين هما منطقة خوزستان (عربستان) غرب ايران الحالية حيث يتواجد بها حوالي 20000 ألف نسمة مع بداية القرن العشرين ووصل عددهم في نهايته الى 30000 نسمة منتشرين في عدة مدن كالأحواز ومحمرة وعبادان وميسان والخفاجية والفلاحية والبسيتين[8] .

أما المنطقة الثانية فهي بطائح العراق الواقعة في الجنوب، وتسمى أيضا منطقة الأهوار، وتعني منطقة المسطحات المائية المنخفضة جنوبي السهل الرسوبي العراقي بين نهري دجلة والفرات المحصورة في مثلث تمثل مدن الناصرية والعمارة والبصرة رؤوسه الثلاث . وقد انتشر الصابئة موزعين على مدن وقرى عديدة في هذه المنطقة، مثل: العمارة والعزيِّر وقلعة صالح والشرش ونهر صالح وكرمة بني سعيد والجبايش والحمار وسوق الشيوخ والناصرية والبصرة

والقرنة، مع وجود قليل جدا في الدليم وأربيل والسليمانة وكربلاء ثم بغداد مع بداية القرن العشرين[9].

ويذكر أن الصابئة المندائيون في العراق ينتمون الى عدة قبائل مختلفة تجمعها وحدة الدين[10]، فسكنت كل قبيلة منطقة أو مدينة معينة هناك، ولم تتغير خارطة انتشارهم طوال العهد العثماني، وبدأت في التغير في أواخره فقط، عندما بدأت هذه الأقلية في الخروج من عزلتها وانتقال بعض من عائلاتها الى المدن العراقية وحتى خارجه، وقد ذكر السيد عبد الرزاق الحسني أهم تلك القبائل وأماكن سكناه لخصناها في الجدول التالي:

جدول1: يوضح أسماء قبائل الصابئة المندائيون ومناطق سكناها

اسم القبيلة	منطقة السكن
المندوبة	العمارة
الخميسية	قلعة صالح والقرنة
أبو زهرون	المسيعيدة والحلفاية
المسودنية	ناحية المجرى الكبير
أبو كلمش	منطقة الكحلاء
الجحيلة	المدينة(بالتصغير) والشرش القرنة
الكيالين	البصرة وأطرافها
البنكانية	البصرة وأطرافها
الدهيسية	الناصرية
أبو سبتي	سوق الشيوخ
أبو مهنا	سوق الشيوخ
أبو عزاز	أطراف سوق الشيوخ
السيفية	سوق الشيوخ
البريجية	الجبايش

المصدر:عبد الرزاق الحسني: الصابئة ماضيهم وحاضرهم، ط3، مطبعة العرفان، صيدا لبنان، 1963م، ص ص 125-126 .

3.3 حركة الصابئة وهجراتهم في العهد العثماني :

نظرا لقلة عددهم وجد الباحثون صعوبة كبيرة في تتبع حركتهم داخليا وخارجيا لكن نجد اتفاقا بينهم حول هجرة بعض الصابئة داخليا وخارجيا، وأهم ما اتسمت به الهجرة الداخلية هو مغادرتهم من المناطق التقليدية التي سكنوها عبر تاريخهم الطويل نحو المدن الكبرى خاصة مدينتي بغداد والبصرة، حيث بدأت مع مطلع القرن العشرين واتسع نطاقها لاحقا، وكذلك الهجرة الخارجية نحو بلدان أخرى عربية وأوروبية، أما عن أسبابها فهي مختلفة نلخص أهمها فيما يلي:

-دوافع اقتصادية: تمثلت في رغبتهم في تحسين أوضاعهم خصوصا أنهم حرفيون مهرة وصاغة لا يشق لهم غبار، كما أن لهم صمعة وصيت في هذا المجال، وفي المدن يزداد دخلهم كلما ازداد زبائنهم[11] ، كما أن الحياة الرفاهية انحصرت في المدن دون الأرياف .

- **دوافع اجتماعية وثقافية:** وتمثلت في تخلي أبناء هذه الطائفة عن أفكارهم التي توارثوها، واقبالهم على تعليم أبنائهم في المدارس الحكومية التي انتشرت مع ازدهار التعليم الحديث في العراق منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع عدم وجود مدارس خاصة بهم مثل اليهود والنصارى الذين قاموا بفتح عديد المدارس في تلك الفترة[12].

- **التحرر من القيود الدينية:** التساهل في أمر المراسيم الدينية لأبناء هذه الأقلية التي طالما حافظت على موروثها الديني الذي يأمرهم بضرورة السكن بالقرب من الأنهار الجارية، نظرا لما للطهارة بالمياه الجارية من قدسية في الديانة الصابئية، الأمر الذي قد يبيح لهم السكن على غير مجاري المياه مثلما أكد ذلك بعض رجال الدين المندائيون [13] .

واذا كانت أهم اتجاهات الهجرة الداخلية باتجاه بغداد والبصرة فان بعض الصابئة المندائيون أقدموا على الهجرة الخارجية أي خارج العراق باتجاه ايران شرقا كما اتجهوا أيضا الى البلدان العربية المجاورة كسوريا فاستوطنوا دمشق وحلب، ومصر خاصة القاهرة والاسكندرية وكذلك

مدينة بيروت بلبنان، واضافة الى تلك البلدان هاجر بعض الصابئة الى بلدان غربية كأوروبا وأمريكا، ولعل القسم المشترك بين كلتا الهجرتين هم التزامن في التوقيت حيث أن بداية كل منهما كانت أواخر القرن التاسع عشر وأخذت في الازدياد تدريجيا منذ مطلع القرن العشرين وازدادت بشكل كبير بعد الاحتلال البريطاني للعراق 1918م.

4.3 احصائيات الصابئة المندائيين في العراق خلال العهد العثماني:

حسب ما اطلعنا عليه في مصادر عديدة أجمعت تقريبا على عدم وجود أي احصائيات دقيقة حول أعداد الصابئة في فترة الحكم العثماني كباقي الأقليات، بحكم الأسباب التي سبق وأن ذكرناها المتعلقة بطبيعة هذه الأقلية[14]، فكانت أغلب هذه الاحصائيات عبارة عن تخمينات ومقاربات للعدد الحقيقي، لكن ما أشارت اليه كل الدراسات تقريبا بدون استثناء هو حقيقة واحدة مفادها أنهم في تناقص أي القرن الذي ينقضي تكون أعدادهم أكثر من القرن الذي يليه . ومن بين الكتاب والباحثين الذين أشاروا الى أعداد نفوس هذه الأقلية نذكر جون باتيست تافرنييه الذي مر على مدينة البصرة عام 1652م وكتب قائلا: "... وهم لا يسكنون مدينة أو قرية لا يجري فيها نهر، وقد أكد لي غير واحد من رؤساء دينهم أن هؤلاء النصارى يبلغون في كل المواطن المذكورة أعلاه نحو خمسة وعشرين ألف عائلة، بينهم تجار، لكن معظمهم من أصحاب الحرف خاصة الصياغة، والنجارة والحدادة، وعقيدتهم مشحونة بالخرافات والأوهام، ويسمبهم الفرس والعرب الصابئة، أي الشعب الذين تركوا دينهم واعتنقوا دينا آخرا، ويسمون أنفسهم في لغتهم الخاصة مندائية يحي أي أتباع يوحنا، الذي منه كما يؤكدون استمدوا عقيدتهم وعنه تلقوا كتبهم وتقاليدهم"[15].

كما ذكر الرحالة الانكليزي جيمس بيكنغهام أن عددهم عام 1816م قد بلغ 1000 عائلة ثلاثون منها في البصرة ومائة عائلة في القرنة الى الشمال من البصرة عند ملتقى نهري دجلة والفرات، وكانت ثمة أسر أخرى في بلدة سوق الشيوخ[16]. وذكر أيضا المستشرق الألماني بيترمان أن عددهم العام 1830م يبلغ 500 عائلة أو يزيد قليلا في المنتفق والقرنة وبعض مناطق الجنوب العراقي. أما الأب أنستاس ماري الكرملي فقد ذكر في مقالاته عن الصابئة

المندائيين أعوام 1900 و1902م "وقد أحصيت بنفسي عدد الصابئة بلدة بلدة ووجدت أنهم لا يزيدون عن 1800 نسمة، وهم يسيرون الى الانقراض حثيثا " [17].

كما ذكر ألكسندر آداموف أن عددهم عام 1901م ينحصر بين 4000 و5000 نسمة[18]، وعن الوثائق العثمانية لم يأتي ذكر أعدادهم في العهد العثماني الا في النشرة الرسمية العثماتية لعامي 1898و1899م حيث أشارت الى أن عددهم حوالي 3000 نسمة في مناطق البصرة والعمارة والناصرية فقط أي دون احتساب الصابئة الذين يسكنون خارج المناطق المذكورة[19].

يمكننا القول ان الاحصائيات في فترة الدراسة كانت متفاوتة يشكل كبير لأنها لم تكن صادرة عن دوائر رسمية لذلك فان الاحصائيات التي صدرت بعد العهد العثماني تعد أقرب الى الواقع منها احصائيات مديرية الأمن العام التي جاءت على النحو التالي: في احصاء العام 1947م قدر عددهم ب 6597 نسمة، وفي احصاء العام 1957م بلغوا 11425، أما العام 1965م فعددهم 14262، واحصاء عام 1977م وصل العدد الى 15937 .

4. الأنشطة الاقتصادية للصابئة المندائيين:

يرتبط الاقتصاد في أي بلد بالجوانب الأخرى السياسية والاجتماعية ارتباطا وثيقا، والاقتصاد العراقي ليس استثناء فالقطاعات والنشاطات الاقتصادية الثلاث زراعة وصناعة وتجارة كانت تؤثر وتتأثر بالاهتزازات السياسية كما غلفها الطابع الاجتماعي القبلي والعشائري خاصة في مجال الزراعة حيث يمكننا القول أن الاقتصاد العراقي عموما كان اقتصادا بدائيا طوال فترة الحكم العثماني لكن نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأ في التحول، وأخذ يرتبط بالاقتصاد العالمي، ويشهد انفتاحا كبيرا تمثل في تزايد حركة الاستيراد والتصدير التي انعكست بشكل واضح على الدخل العراقي نتيجة نشاط الشركات الأجنبية خاصة الأوروبية التي عملت في المدن العراقية، فأصبح العراق سوقا مهما للبضائع الأوروبية والآسيوية، كما زادت صادرات العراق من المنتوجات الزراعية كالحنطة والشعير والتمور بشكل كبير[20].

ان هذا التحول في طبيعة الاقتصاد العراقي انعكس على طوائف المجتمع العراقي فكانت أكبر الطوائف المستفيدة هما النصارى واليهود لكن الطوائف الأخرى أيضا تأثرت به فطائفة الصابئة المندائيون التي طالما استوطنت مناطق محددة في جنوب العراق الناصرية والعمارة وقلعة صالح بدأت تشهد حركة هجرة متزايدة باتجاه المدن الكبيرة أواخر العهد العثماني نتيجة دوافع اقتصادية فكثرت محلات الصياغة التي كان ملاكها من المندائيين في البصرة وخاصة بغداد، وتمتع هؤلاء الصاغة بصمعة طيبة استطاعوا بفضل اتقانهم لهذه الحرفة أن ينافسوا نظرائهم اليهود ومن باقي الطوائف الأخرى[21] .

ونلاحظ من خلال الكتابات التاريخية سواء لرحالة أجانب أو لكتاب عراقيين من طوائف أخرى أو من طائفة الصابئة المندايين أن هذه الطائفة انحصر دورها الاقتصادي في الصناعة والحرف التقليدية كالحدادة والنجارة والصياغة وغيرها، في حين غابت أدوارها تماما في قطاعي الزراعة والتجارة، ولم يمارسوا أنشطة ذات طابع فلاحي أو تجاري الا في أضيق الحدود وهو ما أكده الكسندر آداموف والليدي دراوور وغيرهم من الباحثين لكننا حاولنا الغوص في أسباب عزوف هذه الطائفة على الزراعة والتجارة فيما يلي:

1.4 علاقة الصابئة المندائيون بالنشاط الزراعي:

كما ذكرت أغلب المصادر التاريخية فان الزراعة في العراق مثلت قطاعا حيويا للاقتصاد العراقي خلال فترة الحكم العثماني في العراق وتقريبا مع تطور الوسائل والامكانيات المستعملة في هذا القطاع أواخر هذا العهد، ومع التحولات التي أشرنا لها سلفا زادت الصادرات العراقية بشكل ملحوظ[22]، وتؤكد كل الكتابات أن أغلب أطياف المجتمع العراقي كانت لها أدوار مساهمة في القطاع عدا طائفة الصابئة المندائية التي كانت الأنشطة الزراعية آخر اهتماماتها، ولعل ذلك يعود الى عدة أسباب أهمها:

-لأن النشاط الزراعي يتطلب مقومات كثيرة لا يمتلكها الصابئة المندائيون، ومنها الطابع الاجتماعي القبلي لملكية الأراضي في العراق حيث استولت القبائل الكبرى ذات المكانة والقوة

والامتداد الديمغرافي في البلاد على أغلب الأراضي الزراعية، ولم يكن بالامكان منافستهم في ملكية الأراضي بسبب فارق عدد النفوس والقوة.

-الطابع المسالم للصابئة المندائيين حيث يتطلب العمل في هذا المجال على القوة التي تمكن أصحابها من حماية أراضيهم عن طريق الحرب، والدخول في نزاعات قبلية مع قبائل أخرى ان تطلب الأمر ذلك، وهو ما لا يتوفر لديهم فقلة عددهم وسلميتهم حتمت عليهم الابتعاد عن كل ما يدخلهم في صراعات تنعكس عنهم سلبا .

-تاريخيا لم تكن الزراعة من ضمن أولويات الأنشطة الاقتصادية للطائفة طوال تواجدها في العراق فالزهد والانطواء أبرز سماتهم فعملوا في أنشطة لا توجد بها منافسة مع الطوائف الأخرى فاعتمدت على النشاط الحرفي وأبدعت فيه وكان أبرز نشاط ارتبطت به الطائفة تاريخيا .

-الدخل المادي القليل الذي تدره الزراعة مقارنة بالأنشطة الاقتصادية الأخرى كالحرف التي مارسها الصابئة المندائيون اذ ذكرت المصادر التاريخية أن دخل الحرفي في مهنة الحدادة مثلا ضعف دخل الفلاح العراقي في بداية القرن العشرين[23].

-اضافة الى كل ذلك فان الزراعة كنشاط تتطلب مجهودا عضليا كبيرا أي بنية فيزيولوجية قادرة على تحدي قساوة الطبيعة بكل المشقات والصعاب، ومعنى ذلك أنها ليست في متناول الجميع بل يمارسها ذوو الأجساد القوية فقط .

-السبب الآخر هو ما يتعلق بالطبيعة حيث أن المحاصيل الزراعية غير آمنة من الكوارث الطبيعة التي تضرب البلاد من حين لآخر كالفيضانات التي ضربت البلاد أعوام (1656-1786-1822-1892-1895م)[24]، والجراد وغيرها فتأتي على الأخضر واليابس وخسائرها لا تحصى .

ولهذه الأسباب التي ذكرناها مجتمعة جعلت طائفة الصابئة المندائية تبتعد عن ممارسة الأنشطة الزراعية لكن دورهم فيها كان دورا كبيرا خاصة في المناطق التي استوطنوها أو القريبة منها حيث كانوا يمارسون المهن والحرف التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالزراعة فتقريبا كل المعدات والأدوات الزراعية كالفأس والمسحاة والمناجل والسكاكين وغيرها كانت تصنعها أيادي الحرفيين

المندائيين[25]، وبالتالي فان دورهم في هذا القطاع كبير ولاغنى عنه اذ شكل داعما مهما لهذا النشاط .

2.4 النشاط الحرفي للصابئة المندائيين:

على النقيض من القطاع الزراعي الذي غاب فيه دور الأقلية الصابئية فان قطاع الصناعة والحرف والمهن شكل النشاط الاقتصادي الرئيسي لهم، ولم يكن ارتباطهم به وليد فترة الحكم العثماني للعراق بل كان عبر تاريخ الطويل خصوصا الصياغة التي توارثوها أبا عن جد، ولم تكن الحرفة الوحيدة بل امتهنوا عدة حرف نذكر فيما يلي أهمها:

–النجارة: امتهن الصابئة المندائيون النجارة منذ القدم والتي تعتمد على جلب الأخشاب من البصرة والمدن القريبة منهم، ومن ثم استعمالها في صناعة الأثاث المنزلي وكل ما تحتاجه البيوت العراقية مثل صناديق حفظ الملابس والأشياء الثمينة اضافة لصناعة الأسرة والكراسي، والطاولات وغيرها. وقد عرف عنهم اتقانهم الشديد لهذه الحرفة، ولمعظم أعمالهم وصناعاتهم لذا كان العراقيون يفضلون نجارة الصابئة عن غيرهم من النجارين من أطياف الشعب العراقي الأخرى[26] .

–صناعة واصلاح الزوارق : تكاد هذه المهنة تكون حكرا على الصابئة المندائيين حيث ارتبطت بهم وارتبطوا بها، وكما هو معلوم عنهم أنهم يعيشون بالقرب من المياه ويقدسونها أي الأنهار، ولذلك كانت صناعة القوارب أهم حرفة في تاريخهم عبر الزمن[27]، اذ أن كتاب "دراشة أد يهيا" (مواعظ وتعاليم النبي يحي بن زكريا) مليء بالزوارق وأجواء الصيد في جنوب العراق ومما جاء فيه « أنا أمهر الصيادين وأفضلهم... رئيس الموانئ أنا...أعرف الأهوار حتى تلك الصغيرة منها والكائنة في الأعماق الداخلية...كما أعرف التلال وأكتشف المصائد والكمائن..أطوف حول الأهوار وأصل اليها وأدخلها...أعبر المستنقعات بالعبارات والزوارق وسفينتي لا يعوقها عائق.....»[28] . ومن أنواع الزوارق التي يصنعونها نذكر:

–الطرادة: طولها يبلغ 6 أمتار وعرضها متر ونصف تقريبا وهي عريضة من الوسط تضيق تدريجيا اتجا الجانبين تتسع لثمان أفراد .

-البركش: طوله كالطرادة تقريبا الا أنه أكثر عمقا وعرضا يسبر بواسطة المردي والشراع والمجاديف، أو الجر بالحبال في المناطق الأقل عنقا .

-المشحوف: هو زورق رشيق مسلوب الشكل طويل يصل 7 أمتار وعرضه متر واحد في الوسط، وهو ذو مقدمة ومؤخرة مرتفعتين، يساعده شكله المسلوب في المرور في مضائق الأهوار المليئة بالقصب الكثيف ويدفع بالمجاديف أو المردي[29] .

-المخيط: وهو زورق صيد صغير طوله متران وعرضه متر واحد، يصنع من الخشب المنشور والمسامير، ويزفت من الخارج بالقير، يحمل شخص واحد(الطائي، 2010، 195) .

-الحدادة: تكاد تكون هذه الحرفة حكرا عن الصابئة منذ أقدم العصور خصوصا في المناطق التي يقطنونها، وتعد هذه المهنة التي اختص بها رجال الصابئة دون النساء مهنة شاقة جدا اذ تعتمد اعتمادا كليا على القوة العضلية، كما تعتمد على وسائل بدائية ويدوية ومعدات بسيطة جدا، اذ أن الوقود المستعمل في عمليات تسخين المعادن وتشكيلها هو عبارة عن قطع من القصب التي يشتريها الحداد ويحولها الى فحم في مكان بدائي، ويعود هذا الى ندرة عدم وجود الوقود وحتى أواخر العهد العثماني كان نادرا ومكلفا للغاية، الا أن المصادر أشارت الى أن هذه المهنة كانت توفر دخلا معقولا قدر بضعف دخل الفلاح في منتصف القرن العشرين حيث بلغ 7 دنانير شهريا[30].

أما عما ينتجه الحداد الصابئي من أدوات فهي كل المعدات الزراعية التي يحتاجها المجتمع العراقي في الزراعة كالمسحاة والفأس والمنجل وسكين تفشيق القصب (المشك) الذي حائك الحصر القصب في عملية تهيئته للحياكة[31]. اضافة الى معدات وأدوات تستعمل في حرف أخرى كالمسامير المستعملة في صناعة واصلاح الزوارق، كما يقوم الصابئة بصناعة رماح الصيد، وباصلاح الأسلحة النارية بعد ظهورها وهي بنادق قديمة كثيرة العطل استعملها العراقيون في نزاعاتهم القبلية، وفي صيدهم وحماية أراضيهم الزراعية .

3.4 الصابئة المندائيون ومهنة الصباغة:

الصياغة فن قديم ظهرت اولى ملامحه ونتاجاته على أيدي السومريين سكان وادي الرافدين القدماء حوالي 3500 قبل الميلاد[32] منذ تعرفهم على معدن الذهب، فظهرت على أيديهم أولى ملامح هذا الفن الجديد (الصياغة) بعد أن وضعوا له الأسس الأولى وجعلوه فنا مستقلا، وابتكروا له كل مستلزمات العمل، ويمكن الاشادة كثيرا بجهود السومريين وبراعتهم باعتبارهم من وضع اللبنة الاولى لهذا الفن (الصياغة)، فقد بلغت نتاجاتهم في هذا المجال شأنا متقدما يثير الاعجاب، اذ تميزت بالدقة والتنوع والبراعة، أما مسألة التطعيم بالأحجار الكريمة والأحجار والأصداف فقد بلغوا فيه شأنا كبيرا، كما عرفوا فن النقش والقولبة وصناعة الميناء الملونة وهو ما تؤكده الحفريات والاكتشافات الأثرية.

ومنذ قديم الزمان اتخذ الصابئة المندائيون فن الصياغة وصناعة المجوهرات مهنة لهم، فأحبوها وتوارثوها بين أجيالهم، وأصبحت مهنة الغالبية العظمى منهم[33]، فانتشرت محلاتهم ومتاجرهم بشكل واسع في جميع المدن التي سكنوها، هذا الأمر جعل هذه المهنة مقترنة ومرتبطة بهم أكثر من باقي الطوائف، فخبراتهم في هذا المجال فاقت خبرات اللآخرين، وحبهم لهذه المهنة وتعلقهم بها فاق تعلق الآخرين، اذ نادرا ما نجد مندائيا لايعرف أسرار هذه المهنة حتى وان لم يمتهنها، لذلك برزت قدراتهم ومواهبهم وابداعاتهم في هذا المجال، ويمكن تلمس ذلك من خلال ما أنتجوه من روائع في هذا الفن الجميل والمميز .

هذا، وقد عرف القرن التاسع عشر تطورا كبيرا في فن الصياغة العراقية حيث وصل هذا الفن الجميل في العراق ذروته على أيدي الصاغة المندائيين فأبدعوا فيه، وتسيدوه نظرا لدورهم البارز في تطوير هذه الصناعة وهذا الفن خاصة في تطعيم الفضة بالمينا السوداء على يد الملا خضر الذي يعد أول من أدخل هذا الفن الى العراق، ثم تعلمه أبناءه وأبناء الطائفة المندائية، واشتهر بينهم الصائغ زهرون ملا خضر أول من أدخل الألوان للمينا، ونفر من عائلته مثل الصائغ المشهور حسني زهرون الذي أبدع في رسم صور (البورتريت) للأشخاص. كما برع آخرون في هذا المجال منهم عباس عمارة والشيخ عنيسي الفياض الذي أصبح الصائغ الخاص للملك فيصل الأول.

لقد كان المندائيون ومازالوا الصاغة الوحيدين القادرين على صناعة هدايا الدولة العراقية التي تقدم لملوك ورؤساء الدول الأخرى، فقد صاغ زهرون الملا خضر للملكة اليزابيث والملك ادوارد عدة تحف وهدايا فضية موجودة في المتحف البريطاني، وصاغ حسني زهرون لتشرشل علبة سيكار من الفضة، وقد رسم على وجه العلبة صورة تشرشل رافعاً يديه[34] ، كما قاموا ببراعتهم المعهودة بأكساء معظم قباب وأبواب وجدران المراقد المقدسة في العراق بالذهب والفضة .

5. الخاتمة:

نستنتج من خلال هذه الدراسة حول التوزيع السكاني والأنشطة الاقتصادية للصابئة المندائيين في العراق خلال غترة الحكم العثماني عدة نتائجنذكر أهمها فيما يلي:

أولا– ان أتباع هذه الديانة سكنوا منطقة البطائح في الجنوب الشرقي لبلاد العراق أغلب فترة الدراسة لكن أواخر العهد العثماني بدأ انتشارهم يعرف تغيرا بتوجه بعض أبناء هذه الأقلية الى المدن خاصة بغداد والى خارج البلاد كأوروبا وغيرها لأسباب مختلفة أغلبه اقتصادية رغبة منهم في تحسين نستور معيشتم .

ثانيا–هو أن هذه الأقلية مقارنة بباقي مكونات المجتمع العراقي لم يزداد حجمها الديمغرافي رغم مرور عدة قرون من تواجدهم في العراق بل أن الباحثين يؤكدون انهم في تناقص تدريجي قد يؤدي بهم الى الانقراض.

ثالثا– لم تعرف أنشطتهم الاقتصادية تنوعا كبيرا مثل باقي فئات المجتمع العراقي، حيث لم يشتغلو بالزراعة التي كانت النشاط الرئيسي في العراق خلال العهد العثماني، ولم يكونوا تجارا كبار، بل على العكس كانت مساهمتهم في هذا المجال جد محدودة ان لم نقل معدومة تماما خلال فترة الدراسة .

رابعا–اقتصرت أنشطتهم الاقتصادية على بعض الحرف التي برعوا فيها كصناعة وتصليح الزوارق بمختلف انواعها واحجامه، والحدادة والنجارة، اضافة الى حرفة الصياغة التي كانت النشاط الرئيسي لغالبيتهم .

خامسا-تميز الصايئة المندائيون بشكل كبير في فن الصياغة حيث لم يكن في المجتمع العراقي من يستطيع منافستهم في هذا المجال اتقانا وابداعا، وهذا ما يدل عن فهمهم العميق لخبايا هذه الحرفة التي توارثوها أبا عن جد، كما كان لهم الدور الأكبر في تطوير هذا الغن في عموم بلاد العراق .

6.قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم .

-آداموف، الكسندر: ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، تعريب هاشم صالح التكريتي، ط1، دا الوراق للنشر، لندن، 2009م .

-بارو أندريه : سومر فنونها وحضارتها، تعريب الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، طبعة بغداد 1979م .

-بطاطو حنا: العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، تعريب غفيف لرزاز،ج1، ط1، در الأبحاث العربية، بيروت، 1995م .

-بيكنغهام جيمس: رحلتي الى العراق1816م/تعريب طه سليم التكريتي، ب ط،مطبعة أسعد، بغداد، 1968م .

-تافرنييه جان باتيست : رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر 1676م، تعريب: كوركيس عواد وبشير قرنسيس، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م.

-حسن، محمد سلمان: التطور الاقتصادي في العراق 1864-1958م، ج1، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1965م .

-الحسني عبد الرزاق: الصابئة ماضيهم وحاضرهم، ط3، مطبعة العرفان، صيدا لبنان، 1963م.

-حمادة محمد عمر: تاريخ الصابئة المندائيين،ط1،دار قتيبة للطباعى والنشر،دمشق، 1942م.

-الخيون رشيد: الأديان والمذاهب في العراق، ج1، ط1مركز المسار للدراسات والأبحاث، دبي، 2016م .

-دراوور الليدي: الصابئة المندائيون، ط2، تعريب نعيم بدوي وغضبان رومي، بغداد، 1987م.

-دفتر خالد ميران : شخصيات مندائية في التاريخ المعاصر، ط1، ب د ن، ب ب، ب س .

-رؤوف عماد عبد السلام: الحياة الاجتماعية في العراق في عهد المماليك(1749-1831م)،ط1، مطبعة القاهرة، ب س .

-الزهيري عبد الفتاح: الموجز في تاريخ الصابئة العرب البائدة، ط1، المكتبة الوطنية، بغداد، 1983م.

- سليم شاكر مصطفى: دراسة أنثروبولوجية لقرية في الأهوار، ط1، مطبعة الرابطة،بغداد، 1956م.

-الطائي صادق شهيد: سر الماء..سر الفضة دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2010م .

-عبد الواحد، بشير يوسف: الصابئة المندائيون(سلسلة معارف موجزة)، دار شمس للنشر والاعلام، القاهرة، 2017م .

-العدوي أحمد عبد المنعم: الصابئة منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م .

-المغلوث سامي بن عبد الله: أطلس الأديان، ط1،مكتبة العبيكان، الرياض، 2007م .

-النجار جميل موسى : التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير(1869-1918م)، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2002م.

7. الهوامش:

[1]المغلوث سامي بن عبد الله: أطلس الأديان، ط1،مكتبة العبيكان، الرياض، 2007م، ص 161.

[2]سورؤة البقرة، الآية 62.

[3]سورؤة المائدة، الآية 69.

[4]سورؤة الحج، الآية 17.

[5]العدوي أحمد عبد المنعم: الصابئة منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م .، ص 125

[6] جان باتيست تافرنييه: رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر 1676م، تعريب: كوركيس عواد وبشير قرنسيس، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م، ص ص 74-75).

[7] عماد عبد السلام رؤوف: الحياة الاجتماعية في العراق في عهد المماليك(1749-1831م)،ط1، مطبعة القاهرة، ب س ، 383-384.

[8]ا صادق شهيد الطائي : سر الماء..سر الفضة دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2010م ، ص 16.

[9] دراوور الليدي: الصابئة المندائين ، تعريب نعيم بدوي ةعضبان رومي، ط2، بغداد، 1987م ، ص 32.

[10] عبد الفتاح الزهيري: الموجز في تاريخ الصابئة العرب البائدة، ط1، المكتبة الوطنية، بغداد، 1983م.، ص 194.

[11]صادق شهيد الطائي، المرجع السابق، ص 17.

[12] جميل موسى النجار : التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير(1869-1918م)، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2002م.، ص 420.

[13] عبد الرزاق الحسني: الصابئة ماضيهم وحاضرهم، ط3، مطبعة العرفان، صيدا لبنان، 1963م ، ص ص 63-64.

[14] رشيد الخيون : الأديان والمذاهب في العراق، ج1، ط1مركز المسار للدراسات والأبحاث، دبي، 2016م ، ص 136.

[15] جان باتيست تافرنييه، المصدر السابق، ص 75.

[16] بيكنغهام جيمس: رحلتي الى العراق1816م/تعريب طه سليم التكريتي، ب ط،مطبعة أسعد، بغداد، 1968م ،ص 272

[17] جان باتيست تافرنييه: المصدر السابق، ص ص 117—118.

[18] الكسندر آداموف : ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، تعريب هاشم صالح التكريتي، ط1، دار الوراق للنشر، لندن، 2009م ، ص 246.

[19]رشيد الخيون: المرجع السابق ص 136.

[20] آلكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 530.

[21] بشير يوسف عبد الواحد: الصابئة المندائيون(سلسلة معارف موجزة)، دار شمس للنشر والاعلام، القاهرة، 2017م ، 646

[22] محمد سلمان حسن : التطور الاقتصادي في العراق 1864-1958م، ج1، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1965، ص 33.

[23] شاكر مصطفى سليم: دراسة أنثروبولوجية لقرية في الأهوار، ط1، مطبعة الرابطة،بغداد، 1956م ، ص ص 168-169.

[24] حنا بطاطو: العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، تعريب غفيف لرزاز،ج1، ط1، در الأبحاث العربية، بيروت، 1995م ، ص34.

[25] عبد الرزاق الحسني: المرجع السابق، ص ص 128-129.

[26] صادق شهيد الطائي: المرجع السابق ، ص 294.

[27] الليدي دراوور: المرجع السابق ، ص 83.

[28] صادق شهيد الطائي: المرجع السابق ، ص 294.

[29] الليدي دراوور: المرجع السابق ، ص 83.

[30] شاكر مصطفى سليم، المرجع السابق ، ص ص 168-169.

[31] صادق شهيد الطائي: المرجع السابق ، ص 191.

[32] بارو أندريه : سومر فنونها وحضارتها، تعريب الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، طبعة بغداد، 1979م ، ص 209.

[33] عبد الرزاق الحسني: المرجع السابق ، ص 129.

[34] دفتر خالد ميران : شخصيات مندائية في التاريخ المعاصر، ط1، ب د ن، ب ب، ب س ، ص146.